علاقة الشخصية بباقي المكونات السردية الأخرى
(دراسة في رواية بخور السراب لبشير مفتي)

شريف جميلة
المركز الجامعي تيسمسيلت

1- علاقة الشخصية بالحدث :

إن علاقة الشخصية بالحدث علاقة تكامل وتلازم، فكل عنصر يكمل الآخر، ذلك أن الشخصية بدون حدث شخصية باهتة ميتة، والحدث بدون شخصية حدث جامد لا يمكن تصور وقوعه، يقول الروائي الأمريكي "هنري جيمس""Henry James": "إن الشخصية ليست سوى التجسيد الحي للحدث، بينما الحدث ليس سوى الشخصية وهي تتحرك وتحيا"(1)

فالشخصية الروائية هي الصانع الرئيسي للحدث والدث هو الذي يجعل الشخصية تعمل وتتحرك"ولا يجوز الفصل بينها وبين الحدث لأن الشخصية هي التي تقوم بهذه الأحداث"(2)

وبدون هذه الشخصية لا يمكن وقوع الحدث، فهي التي تجسده على أرض الواقع وهي التي تؤديه وتبعث فيه الحركة والتطور، والحدث الذي يصدر عن الشخصية قد يكون حسيا وقد يكون مجردا وهو"ما يقع داخل الشخصية أو ما يصدر عنها من تصرفات يمكن أن تكون سلوكية ملموسة أو فكرية مجردة"(3).

إن الوظيفة لا يمكن تصورها في حالة غياب الشخصية، والوظيفة حسب "بروب" "هي فعل تقوم به شخصية ما من زاوية دلالته داخل سير الحبكة"، وهذه المقاطع السردية تؤكد ذلك.

"أفكر بجدية في ترك الجامعة، فحسب ما سمعت لقد حلل دمي وإن كل تلك الشائعات بصددي لم تكن إلا البداية لإعطاء شرعية لمقتلي" (4)

فـ"تفكير" "حداد" في ترك الجامعة هو حدث تم من قبل الشخصية، ولو لا هذا الفعل الذي قامت به لما ظهر دور الشخصية وأهميتها، يقول رشاد رشدي "من الخطأ الفصل أو التفرقة بين الشخصية أو بين الحدث، لأن الحدث هو الشخصية، وهي تعمل أو الفاعل وهو يفعل"(5)

"هذه الخواطر ملأتني فجأة بعد قراءة" بخور السراب "لحداد" قرأتها وتساءلت عن النقطة الجوهرية التي تقاطع فيها جيلنا، الذي سماه بجيل الذبيحة"[6]

إن الحدث الرئيس في هذه الرواية هو دائما حدث المحنة والإرهاب والاغتيالات والخوف والرعب والدم.

"لقد أحرقوها في الليل وبات الرصاص يلعلع طوال هذه الليلة، سينتقمون من هذه القريـــة لقد أيقظت فيهم أعظم الشرور"[7]

ولعل الحدث في هذه الرواية لا يخرج عن كونه حدثا يتعلق بالحرق أو إطلاق الرصاص أو القتل أو البكاء والنواح...

وكما نلاحظ أن شخصية الراوي قد استقطبت على الأحداث جميعا فهي "بمثابة الكوكب الذي تنجذب إليه بقية المجرات"[8] وهي شخصية محورية تسرد معظم الأحداث وكثيرا ما تنوب عن غيرها من الشخصيات في تحريك أحداث الرواية.

وكل هذه الشخصيات "تشارك في بناء أحداث الرواية"[9] لتعطي في الأخير ذلك النسيج الروائي المنسجم والمتماسك تماسكا فنيا، حيث كل العناصر السردية تكمل بعضها بعضا فالشخصية هي المحور الأساسي بالنسبة لبقية عناصر البنية السردية.

ومن خلال ما سبق يمكننا طرح السؤال التالي:

فيم تتجلى أهمية الحدث بالنسبة للشخصية وهل بإمكاننا فصل هذا العنصر عن ذاك؟

إن الحدث هو الذي يجعل الشخصية حية تتحرك، تنمو و تتطور، وذلك من خلال تصوير جوانبها، والكشف عن دواخلها، وتوضيح علاقتها بغيرها، "فالأحداث هي التي تصور الشخصية وتكشف عن أبعادها وهي تعمل عملا له معنى كما تكشف عن صراعها مع الشخصـــيات الأخرى"[10].

ولولا وجود الحدث لبقيت هذه الشخصية صماء، عمياء لا معنى لها، ولهذا فإن الـــحدث هو الذي يكمل الشخصية، كما أن الشخصية تكمل الحدث، وفي حالة غياب أحدهما، يفقد الآخر أهميته ودوره كعنصر من عناصر الخطاب الروائي.

ولذلك فإن الحدث أو الوظيفة بمفهوم "بروب" "Propp" هي "العنصر الثابت الذي يستخرج من أحداث متماثلة ومن القائمين بهذه الأحداث الذين هم أشخاص القصة" [11]

وهكذا يمكننا أن نتوصل إلى أن" قضية الفصل بين الشخصية والحدث مسألة نظرية فقط لأن الحدث لا يتجسد إلا من خلال شخصية فاعلة تقوم بهذا "الحدث"، ولا يمكن معرفة سماتها إلا من خلال ما تمارسه من أفعال ومواقف"[12].

ومن ثم نستنتج أن الحدث لا يتجسد ولا يتحقق إلا من خلال شخصية تؤديه وتقوم به في النص الروائي، والشخصية لا يظهر دورها ولا يمكننا أن نتعرف على صفاتها

وملامحها إلا من خلال الحدث الذي يسند إليها، وليس من السهولة بمكان أن نتحدث عن الشخصية في غياب وظيفتها ولا يجوز الفصل بينها وبين الحدث، لأن الشخصية هي التي تقوم بهذه الأحداث.

فوجود الشخصية يستلزم وجود الحدث، ووجود الحدث يتطلب وجود شخصية تؤديه فالعلاقة بينهما علاقة الروح بالجسد.

وقد صنف النقاد الشخصية وأوجدوا لها أنواعا وأشكالا استنادا إلى الوظيفة التي تؤديها في النص السردي، فهي التي تسند إليها الأدوار في رسم معالم الحدث الروائي وتجسيده على أرض الواقع "كما يجب أن تكون شديدة الإرتباط بالحدث مؤثرة فيه ومتأثرة به"[13].

إن عدم وجود أفعال في النص الروائي يعني انعدام وظيفة الشخصية فالعلاقة بينهما علاقة تكامل وتلازم، والشخصية هي التي تحرك الأحداث وتدفع بها إلى النمو والتطور.

وهذا ما تحقق بالفعل في رواية "بخور السراب"حيث أسند الروائي كل الأحداث والوقائع إلى شخصياته لتؤديها وتقوم بها في هذا النص الروائي.

"كنت أستمع إليها بانتباه متحاشيا التعليق قدر الإمكان على كلامها، معربا عن الدين الذي أحمله لها بين طيات قلبي، فتضحك ساخرة مني، وهي لا تكف عن الترديد" أي دين يا بني أنا من يشكرك على وفائك لي وبقائك معي"[14].

هذه جملة من الأفعال تقاسمتها شخصية "الراوي" وجدته العجوز"حليمة" ومن خلالها استطعنا أن نتعرف على ذلك الإحترام المتبادل بين هاتين الشخصيتين، حيث حاول الكاتب أن يطور هذه الشخصية بتطور أفعالها والوظائف التي تؤديها، فهو لا يحدد "ملامحها منذ البداية وإنما تنمو شخصياته نموا مطردا بما لا ينافي حركة الواقع والتاريخ"[15].

"بقيت حريصا على حريتي، شاعرا بأن ما يحدث سيصيب الجميع بلوثة سوداء وسيلطخ أرضنا بالدم، هل هو الخوف.. خوفي القديم هو مصدر هذه الاحتياطات"[16].

نلاحظ من خلال المقطع السردي أن الحدث الأساسي يتمثل في الخوف الذي أصبحت تعيشه الشخصية، حيث إنه لا يمكن للشخصية الروائية أن تحمل أي معنى، ما لم تؤد وظيفة أو تقوم بفعل داخل النص السردي، وهذا ما أثبته "تودوروف Todorov" في قوله: "إن المعنى للشيء هو وظيفته"[17]، فالوظيفة هي التي تبث في الشخصية الحركة وتبعث فيها الحياة، وتجعلها تحقق وجودها في الواقع، ولذلك فإن النص الروائي "يفترض أشخاصا يفعلون الأحداث ويختلطون بصورهم المروية مع الحياة الواقعية"[18].

وهذا ما جسدته رواية "بخور السراب" حيث نجد أحداثا واقعية قامت بها شخصيات واقعية أيضا فبعضها صور العشرية السوداء وبعضها الآخر تمثل في العلاقـــات الاجتماعية بين الشخصيات.

"توجهت إلى حانة الأقواس حيث كنت من حين لآخر ألقي بروحي المنهكة على الكونتوار، أسمع لأحاديث المخمورين قبل أن يفقدوا عقولهم ويصعدون إلى فوق"[19].

إن المتأمل لهذا المقطع السردي يجده يصور علاقة الشخصية بواقعها ومحيطها الاجتماعي إذ يرى الراوي أن فقدان العقل يعني التخلص من هذا الواقع الأليم، والهروب إلى عالم آخر يميزه الصفاء والطمأنينة والاستقرار والهدوء والأمن.

وهكذا نلاحظ أن العلاقة بين الشخصية والحدث علاقة وطيدة ومتينة بحيث لا يمكننا فصل أي عنصر عن الآخر، فعناصر الخطاب السردي مجتمعة تشكل بنيته السردية، ونسيجه اللغوي.

2- العلاقة فيما بين الشخصيات: تتمثل العلاقة بين الشخصيات في تلك الأفعال والأقـــوال التي تتبادلها فيما بينها، سواء بالقيام بالفعل أو السرد أو الحوار"فهي التي تسرد لغيرها أو يقع عليها سرد غيرها، وهي بهذا المفهوم أيضا أداة وصف أي أداة للسرد والعرض"[20]، حيث إن الروائي عندما يدخل شخصية جديدة في الحكي لا بد له أن يوضح دورها ويبرز وظيفتها سواء كان ذلك فعلا أو قولا.

وقد تكون هذه العلاقة بين الشخصيات مبنية تارة على التوافق والانسجام، وتارة أخرى يسودها سوء التفاهم وعدم التوافق، وذلك تبـــعا للمحـــيط الاجتماعي الذي تعيش فيه هذه الشخصيات، فهي شخصيات يطبعها تارة الانجذاب وطورا النفور، فرسم الشخصية يتلخص فيما تقوله من كلام أو تفعله من أفعال، وبذلك نستطيع أن نتبين علاقة الشخصيات فيما بينها.

وقد تجسدت هذه العلاقة في رواية "بخور السراب"حيث نلاحظ أن بعض الشخصيات يسودها التفاهم مثل: شخصية "الراوي" و "ميعاد". فالعلاقة بين هاتين الشخصيتين مبنية على أســـاس الحب والمودة، فقد ظل يهيم بها، ينتظرها الساعات الطوال عند غيابها، فهو متمسك بها متعلق قلبه بحبها "أظن بأن لا شيء كان أهم عندي منك ولا أقوى هوسا بغيرك، عمري ما أحببت إمرة مثلك؟"[21]

وكذلك شخصية "الراوي" وجدته "حليمة"حيث كانت العلاقة بينهما يسودها نوع من الاحترام والتقدير والتبجيل.

"لقد وجدت في بيتها كل ما أطلبه وما أتمناه وبشكل خاص الراحة التامة فلم تكن تزعجني قط عرفت حبي للقراءة فكانت تتركني أقضي وقتي ذاك داخل مكتبة زوجها السيد بيار"[22].

في المقابل هناك بعض الشخصيات التي نلاحظ أن العلاقة فيما بينها متوترة، يسودها سوء التفاهم وعدم التوافق مثل العلاقة بين السارد ووالده حيث كانت العلاقة بينهما سيئة للغاية لدرجة هروب الولد من بيت والده.

"هربت من البيت في الصباح و لم يكن ليدور بخلدي أنني سأعثر على مكان لأعيش فيه"[23].

والعلاقة بين الشخصيات يمكن أن تتحدد من خلال ثلاثة مستويات "المتدَّث عنه، والمتحدِّث والمتحدَّث له"[24]، فالمتحدَّث عنه يمثله ضمير الغائب، المتحدِّث يمثله ضمير المتكلم. والمتحدَّث له يمثله ضمير المخاطب لأن" المتحدِّث يتطلب المتحدَّث"[25].

وقد توفرت هذه الضمائر الثلاث في رواية"بخور السراب"، ولكن الروائي ركز كثيرا على ضمير "المتكلم الذي يمثل شخصية الراوي ليبين لنا أن الراوي يقص ما يعرفه عن نفسه وما يعرفه عنها فقط لأن ضمير المتكلم،- كما يرى توما شفسكي- يجعلنا "نتتبع الحكي من خلال عيني الراوي" [26].

وقد هيمن هذا الضمير على السرد هيمنة مطلقة، فهو الذي "يكون قريبا من الذاتية، ذاتية المؤلف بأحاسيسه، ووجهات نظره"[27] وعواطفه وكافة مشاعره وكانت شخصية "المؤلف" في رواية "بخور السراب"متضمنة في شخصية الراوي من خلال الأحداث والوقائع المعيشة، فكل ما عاشه البطل من مآس و أحزان وآلام وإحباطات هي-في واقع الأمر- أحداث ووقائع عاشتها شخصية المؤلف وأرادت تجسيدها من خلال هذه الشخصية المتخيلة.

إن استعمال "ضمير المتكلم" يجعلنا ننظر إلى الموضوع من وجهة نظر الذات، أما ضمير الغائب فهو "بالنسبة للكاتب الوسيلة الأولى للاستيلاء على القارئ بالطريقة التي يريدها"[28] وقد وظف هذا الضمير بكثرة في السرد الكلاسيكي الذي لا يترك فرصة للقارئ للتدخل أو التفسير أو الإفصاح عن وجهة نظره، وهذه المقاطع السردية تؤكد ما سبق ذكره:

"أعرف أنني أحسن الكلام عن الذاكرة"[29].

"إختفى" خالد رضوان "أياما بأكملها ثم ظهر"[30].

"هل تعتقد أن هتلر تأثر حقا بنيتشه"[31].

إن الحديث عن الضمائر يسوقنا حتما إلى الحديث عن وجهات النظر في رواية"بخور السراب"، وذلك من أجل معرفة موقع الراوي من الحكي، حيث اتفق النقاد والباحثون على تحديد ثلاثة نماذج تتعلق بهذه العملية السردية:

1- الرؤية من الخلف: وفيها يكون الراوي أكثر علما من شخصيات الرواية، فهو العليم بكل شيء في النص السردي.

2- الرؤية "مع" أو الرؤية "المصاحبة": وفيها تتساوى معرفة الراوي بمعرفة الشخصية أي"أن الراوي لا يقول إلا ما يعرفه عن هذه الشخصية "[32].

3- الرؤية من الأمام: وفي هذه الحالة تكون معرفة الراوي أقل من معرفة الشخصية "حيث نجد الراوي يقول أقل مما تعرفه الشخصية"[33].

وهكذا نستطيع القول: إن هناك "الراوي بضمير المتكلم" أنا "يروي قصته وآخر يروي بالضمير" هو "...كل هذه محددات بارزة. في التعريف على تقنيات الراوي في الأحداث كشخصية حكائية يتماهى كثيرا مع الكاتب"[34].

وفي هذا الصدد نجد "جيرارجنيت" "Gerarad Crenette" يعرف هذه العملية السردية بقـــوله: "هي المواقف التي تشير إلى موقع السارد أو الذي يتحدث أو يحكي في علاقته بالشخصية"[35].

وقد اعتمدت رواية "بخور السراب" على "الرؤية مع" أو "الرؤية المصاحبة" حيث تساوى السارد مع الشخصية من خلال استخدام ضمير المتكلم، إذ نجده متساوي المعرفة مع شخصياته، ولا يعلم إلا في اللحظة التي تعلم فيها الشخصية حيث كانت هذه الشخصية(الراوي) تمثل البؤرة بالنسبة لبقية الشخصيات الأخرى، فشخصية السارد في رواية"بخور السراب"تمثل الشخصية المركزية، إذ نجد الروائي يسند إليها معظم الأدوار والوظائف.

و"الرؤية المصاحبة" هي التي يكون فيها السارد وشخصياته في درجة واحدة من العلم والمعرفة بحيث لا أحد منهما يكون أعلم من الآخر، فهما في مستوى واحد من الفهم والمعرفة.

وهكذا نجد السارد في هذه الرواية يقص علينا بعض ما حدث له أثناء مسيرة حياته حيث وضح لنا علاقته بوالده الذي كان يعمل حارسا "للمقبرة"، وبعدها وصف هروبه من بيت هذا "الوالد" القاسي ليلجأ إلى العيش مع جدته ،ثم ينتقل إلى وصف نفسه في بيت جدته "حليمة"التي كانت تقطن في حي معزول.

"لم يكون ليدور في خلدي أنني سأعثر على مكان لأعيش فيه لأفكر في جدتي حليمة التي تعيش لوحدها في المنصورة، بذلك الحي الكئيب الذي لا يؤمه إلا الشواذ والمجرمون كما درج والدي على نعته"[36].

فمن خلال حركة شخصية السارد في هذا النص السردي استطعنا أن نكشف أنها شخصية متماهية في شخصية الكاتب إذ يكون صوتها صوتا للمؤلف ليعبر عن أرائه الشخصية وهو ذو علاقة وطيدة بشخصياته حيث نجده يحب شخصية "ميعاد" ويعاملها معاملة طيبة ويمقت أولئك الدمويين الذين صعدوا للجبل من أجل سفك الدماء، وقتل الأرواح، وهو صديق "لحداد" يتبادل معه الرسائل ويناقش "خالد رضوان" في أمور تتعلق بمستقبل البلاد.

ولعل قيام علاقات فيما بين الشخصيات لم يكن بمحض الصدفة، وإنما هناك دوافع وحوافز، تدفع الشخصية وتحفزها لذلك، "ذلك أن الشخصيات في بينها إنما تقوم بذلك بنـــاء على حوافز تدفعها إلى فعل ما تفعل"[37]، فالأسباب والدوافع هي التي تدفع بالشخصية إلى القيام بالفعل أو إنشاء علاقات فيما بينها.

وقبل أن نتحدث عن التحفيز" motivation " بصورة مفصلة، لابد من إحصاء الشخصيات الموجودة في رواية "بخور السراب"، وتتمثل هذه الشخصيات في: الراوي، ميعاد، خالد، رضوان سعاد آكلي، الجدة حليمة، صالح كبير، شخصية والد الراوي، وهي شخصيات أسندت إليها وظائف وأدوار أساسية في هذه الرواية.

وهناك بعض الشخصيات لم يكن دورها بارزا بصورة كبيرة في هذا النص السردي مثل: أستاذة الفلسفة، الفتاة منيرة، أم الراوي، ابن العم الذي يقطن في القرية، قدور سارق النعـــاج في الأسواق الأسبوعية، الطاهر ولد الحاج مبارك، حيث إن هذه الشخصيات لا فعل لها في الرواية، ولذلك فإنها لم تقم علاقات مع غيرها.

وهكذا فإن العلاقات بين الشخصيات نابعة عن حافز يحفزها لقيام هذه العلاقة أو تلـــك وهذه الحوافز كثيرة ومتعددة، ومع ذلك فقد حاول "تدوروف" "TODOROV" أن يختزلها في ثلاثة حوافز أساسية تتمثل في:

1- الرغبة: وشكله الأبرز هو الحب.

2- التواصل: ويجد شكل تحقيقه في الإسرار بمكنونات النفس إلى صديق"[38].

3- المشاركة: وتظهر في شكل تقديم مساعدة من قبل الشخصية إلى شخصية أخرى هي في حاجة إلى ذلك.

وقد تجسدت هذه الحوافز الثلاثة في رواية "بخور السراب" حيث نجدها كما يلي.

1- الراوي يحب ميعاد: ومن ثم نجد أنفسنا أمام حافز إيجابي نشط يتمثل في حافز الرغبة في شكله الأبرز المتمثل في الحب.

ويقابله حافز سكوني عند "ميعاد" وهو حافز "الاستقبال" غير أن ميعاد لا تكتفي بهذا الحافز السكوني، بل تبادل الراوي المشاعر نفسها فتعبر بذلك عن حبها الشديد له، وبذلك يظهر اتجاها ثانيا في هذه العلاقة.

2- "ميعاد" تحب "الراوي": في هذه العلاقة الثانية نجد أنفسنا كذلك أمام حافز إيجابي نشط وهو حب ميعاد للراوي يقابله حافز سكوني، وهو حافز الاستقبال عند الراوي (والمقصود بالاستقبال هو وصول الشيء إلى الطرف الثاني بغض النظر عن القبول أو الرفض).

3- الراوي يكره والده: نجد أنفسنا أمام حافز سلبي نشط يتمثل في حافز الكراهية الذاهب من الراوي باتجاه والده، ويقابله حافز سكوني عند الوالد وهو حافز الاستقبال.

4- الراوي يساعد ميعاد: والحافز الموجود في هذه العلاقة هو حافز المشاركة الذي تم بين الراوي وميعاد من أجل العثور على زوجها "الطاهر سمين"
والشيء نفسه يقال بالنسبة "لصالح كبير" و "سعاد آكلي" حيث نجد:

5- سعاد آكلي تكره صالح كبير: ويظهر ذلك من خلال المقطع السردي التالي:
ومن هنا نستنتج أننا أمام حافز سلبي نشط يقابله حافز الاستقبال عند "صالح كبير".

6- الراوي يسر إلى صديقه "حداد": ويتضح ذلك من خلال المكيدة التي دبرها الدمويون ضده وقد أفشى له بهذا السر صديقه "الراوي" من خلال رسالة بعث بها إليه، والحافز الموجود هو حافز التواصل الذاهب من الراوي إلى صديقه حداد ويقابله حافز سكوني يتمثل في وصول الخبر إلى حداد.

إن هذه الحوافز الإيجابية تقابلها ثلاثة حوافز سلبية هي "الكراهية" ضد "الحب"، "الجهر "ضد" التواصل" "الإعاقة" ضد"المشاركة، ويمكن توضيح ذلك عن طريق الخطاطة التالية:

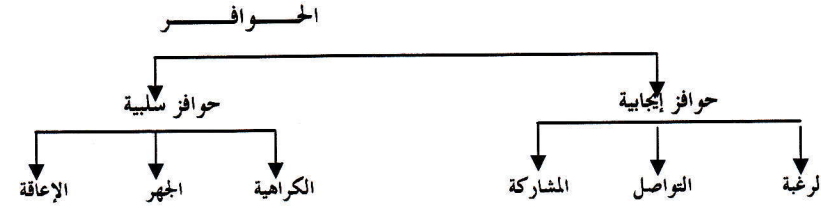

خطاطة توضح الحوافز عند الشخصية من منظور "تودوروف"

نلاحظ أن الحوافز التي دفعت إلى قيام علاقات بين الشخصيات في رواية بخور السراب قد تنوعت بين حوافز إيجابية وأخرى سلبية حسب ما يتطلبه الحدث الذي تقوم به الشخصية في هذا النص السردي.

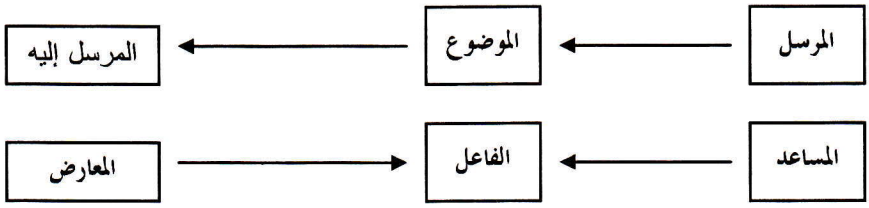

ولتوضيح هذه العلاقة أكثر بين الشخصيات نعتمد خطاطة "قريماس".
فالمرسل هو "الراوي"والمرسل إليه"ميعاد"و الموضوع"الحب" والمساعد هو "الراوي" وافاعل هو "ميعاد" والمعارض "الطاهر سمين".

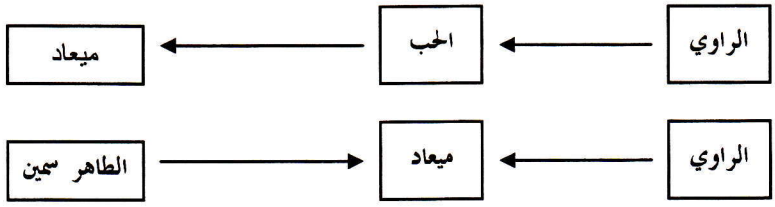

خطاطة توضح العلاقة بين الشخصيات في رواية بخور السراب"

إن المتأمل لخطاطة " قريماس" يلاحظ أنها توضح العلاقة بين الشخصيات عن طريق تحفيز الشخصية كالرغبة التي تمت بين ميعاد والراوي -مثلا- والمشاركة بين الراوي وميعاد أيضا و"الكراهية بين "الطاهر سمين وزوجته(ميعاد).

ومما نلاحظه أن هذه الأفعال قد انقسمت إلى قسمين: إيجابية كالرغبة والتواصل والمشاركة، أو سلبية كالكراهية والاتصال والإعاقة.

وهكذا نستنتج أن العلاقة بين الشخصيات في رواية"بخور السراب"، علاقة متوترة، مبنية على التناقض-في أغلب الأحيان- حيث الخوف والرعب يؤسس هذه العلاقة بين الشخصيات في النص السردي.

3- علاقة الشخصية بالحوار: يعتبر الحوار من أهم العناصر الفنية التي تجعل الشخصية حية تتحرك، وقد يلجأ إليه الروائي من أجل فسح المجال للشخصية كي تعبر عن

نفسها، وتطرح أفكارها وآراءها باللغة التي تناسبها فالحوار هو وسيلة طبيعية للمناقشة وهو يتطلب وجود شريكين للتحاور وهو الذي يجعلنا نتعرف على أفكار الشخصيات وثقافتها وأهوائها واتجاهاتها وما تريد تحقيقه، فقد نكشف عن العالم الداخلي للشخصية من خلال كلامها معاملتها لغيرها.

وقد سمى ميخائيل باختين هذه التقنية "بالتهجين"، "الحوارية"، "تعدد الأصوات" في قوله: "والأجناس المتخللة المدرجة في نص الرواية شعر، أمثال، رسائل، حكم، فهذه الأشكال تسمح بإدخال التعدد اللغوي للشخص لتنوع الملفوظات والمستحضر للخطاب الآخر يفيد في امتصاص تعبير الكاتب عن نواياه، وجعله تعبيرا مباشرا كما أنه يحول خطاب الرواية إلى خطاب ثنائي"[39].

وينقسم الحوار إلى قسمين:

1- الحوار الخارجي: ويتمثل في الحديث بين شخصيتين أو بين عدة شخصيات للتعبير عن أفكارها وعواطفها وأحاسيسها وطباعها"ويجري الحوار بين شخصية وشخصية أو بين شخصية وشخصيات أخرى داخل العمل الروائي"[40]، وقد تكون لغة الحوار عامية أو فصحى حسب المستوى الفكري والثقافي لشخصيات الرواية.

2- الحوار الداخلي (المونولوج): وهو عبارة عن مناجاة الذات لذاتها "ويلجأ الفنان غالبا إلى هذه الوسيلة حين يكون البنيان الداخلي للشخصية هو جل ما يستهدفه من كشف وجلاء في ثنايا العمل الأدبي"[41].

وقد اعتمد الروائي "بشير مفتي" هذه التقنية في نصه السردي نظرا للأهمية التي تلعبها في الإيهام بواقعية الشخصية وتقريبها من ذهن المتلقي، حيث حاول من خلاله (الحوار) أن يكشف عن نفسية الشخصية؛ تلك النفسية المحبطة المحطمة نتيجة للواقع الذي تحيا فيه، ولتأكيد ما قيل نأخذ مقطعا سرديا من رواية بخور السراب يوضح الحوار الذي جرى بين الشخصيات في هذا النص السردي.

"- ها أنا قريب من النهاية.

لم أتفوه بأي حرف كان منظره مثير للشفقة حقا.

عملت دائما بالقرب من الموت لهذا السبب لست خائفا.

والدتك كانت إمرأة رائعة!" [42].

إن لغة الحوار هي التي جعلتنا نتعرف على هذه الشخصية التي أحست بأجلها بعدما بدأ العجز والضعف يدب في مفاصلها،كما استطعنا من خلال الحوار أن نطلع على الواقع الذي تحيا فيه هذه الشخصيات وذلك بـــ"فك أسرار كل شخصية وطرحها على بساط

الواقع"[43] ومحاولة تصوير مشاعرهـــا وأحاسيسها وما يجيش في داخلها ليتحول ذلك إلى علاقة تربط هذه الشخصية بتلك.

ويعد الحوار إحدى التقنيات السردية التي تجعل الشخصية حية تتحرك، فهو الذي يبث فيها الحركة ويبعث فيها الحياة ويقوم بخلقها وإكسابها هيكلتها العامة وتظهر الشخصية فجأة وتنبثق من خلال الحوار مثل: شخصية "ابن العم" الذي لم نتعرف عليه خلال صفحات الرواية إلا بعد الحوار الذي أجراه "الراوي" حول إعادة بناء "قبة" الولي الصالح "جدهم المعزوز".

"لابد من إعادة بناء القبة.

لماذا تأخذ عندك العملية هذه الأهمية؟ لماذا تريد تعريض نفسك لخطر من أجل قبة حجرية لا معنى لها؟.

كأنك سعيد بالإرهاب..

على الإطلاق إنهم وحوش تخرجت من ثقافة متوحشة لم تعظم حرية الإنسان قط"[44].

إن الحوار وسيلة من الوسائل التي تجعلنا نحدد العلاقات فيما بين الشخصيات ونتعرف على مستواها الاجتماعي والثقافي.

غير أن الكشف عن علاقات الشخصيات فيما بينها غير كاف لدراستها، لذلك لابد من الكشف عن علاقة هذه الشخصية بيئتها ومحيطها والمكان الذي يأويها.

4- علاقة الشخصية بالمكان: إن مفهوم المكان في الدراسات النقدية المعاصرة قد تغير تغييرا جذريا، فأصبح يأخذ دلالات وإيحاءات بعيدة، إذ كثيرا ما يحمل المكان في الرواية المعاصرة ملامح الشخصية وقسماتها فينسجم معها انسجاما كليا.

لذلك فإنه من الاستحالة المطلقة أن نتصور شخصية بدون مكان "إذ لا يمكن للشخصية أن تعيش خارج مكانها فهي ملتصقة به أشد الالتصاق"[45] فهو الذي يحميها ويأويها حر الصيف وقر الشتاء فالشخصية لابد لها من مكان تعيش وتتحرك فيه، والمكان لا بد له من شخصية تملأه و تبعث فيها الحركة.

وهكذا فإن العلاقة بين الشخصية والمكان علاقة ترابط وتكامل فالمكان في المفهوم السردي المعاصر لا يحمل بعدا موضوعيا وإنما يحمل أبعادا نفسية تعكس الحياة الداخلية للشخصية، والشخصية تعبر عن الوضع الاجتماعي لمن يتواجدون في ذلك المكان.

ولعل الروائي لا يتعامل مع المكان من حيث إنه فضاء لحياة الشخصيات وحركتها، وإنما يعطيه أبعادا إنسانية تجعل منه كائنا حيا،فتصبح بذلك العلاقة بين الشخصية والمكان علاقة تبـــادل وتكامل وانسجام.

وكثيرا ما يحل المكان محل الشخصية فيعبر عن همومها وآلامها وما تكابده من أحزان ومآس " فتغدو هي بمثابة هو، أو هو بمثابة هي"[46].

وهذا ما تجسد في رواية "بخور السراب" إذ نجد الروائي اختار شخصية "ميعاد" لتعبر عن الوطن في الفاجعة التي ألمت به، والمحنة التي عاشها في الآونة الأخيرة.

كما إتخذ الروائي"شخصية العجوز حليمة" رمزا يعبر عن ماضي الجزائر، قبل حلول مرحلة الاغتيالات والدماء وكذلك شخصية "ميعاد" التي عـــبرت عن الجـــزائر أثناء مرحلة أمـــنها واستقرارها.

"كنت ساحرة في ذلك اليوم، ووجهك ظل يضيء"[47].

إن سحر "ميعاد" ووجهها الوضاء يمثل سحر الجزائر وإشراقها وسعادتها،غير أن ذلك لم يلبث أن تغير بعد ظهور الأحداث الدموية التي عرفها الوطن فتصبح "ميعاد" كئيبة، حزينة، منهزمة.

وهكذا فإن سعادة الشخصية هي سعادة الوطن وحزنها حزن للوطن، فهما وجهان لعملة واحدة، إذ أصبح المكان يحمل ملامح الشخصية وصفاتها، ويصور تحركاتها وعلاوة على ذلك فقد انسجم معها وحل محلها، حيث إن عناصر الخطاب الروائي" تؤلف مجتمعة لحمة العمل السردي وعروته الوثقى التي لا يمكن فك خيوطها"[33]

ولهذا يمكننا الحكم على أن الشخصية والمكان عنصران أساسيان في العملية السردية ولا يمكن الفصل بينهما ومن "هنا يتحول رمز المرأة إلى المدينة"؛ مدينة الجزائر التي تعيش أحداثا دموية، ومجازر بشعة، جعلت منها حقلا خصبا للروائي الجزائري لوصف هذه الوقائع والأحـــداث ومحاولة التعبير عنها. ومن ثم نلاحظ أن الروائي قد تدرج في وصف هذه الشخصية منذ كانت تنعم بالأمن والاستقرار إلى أن أصبحت تعيش في ظروف مؤلمة وقاهرة.

"من قتل ميعاد حقا؟ هو أم أنا؟"[49]

إن قتل"ميعاد يمثل تلك الأحداث المؤلمة التي عاشها الوطن إذ جعلتنا نقاسمه همومه وآلامه "من خلال حركة الشخصيات وتفاعلها معه"[50]، فالتفاعل بين الشخصية والمكان جعل هذا الأخير محملا بدلالات وأبعاد، بعدما كان جامدا منحصرا في رقعة جغرافية معينة "ذلك أن المكان في العمل الإبداعي هو امتداد للشخصية التي يستمد منها حيويته التي تكسبه الجانب الإيجابي أو السلبي وتدخله ضمن الفضاء الروائي"[51].

ولعل المكان في رواية "بخور السراب" قد استمد دلالته ومقوماته من الشخصية، حيث شحنه الروائي بطاقات نفسية جعلته ينسجم مع الشخصية متجاوزا بذلك هندسته وجغرافيته ليعطينا ما يسميه باشلار بـــ"حميمية المكان" الذي يقصد به ذلك الانطباع

النفسي الذي تولده علاقة الشخصيات بالمكان، فلولا هذه الحميمة التي يضفيها الخطاب الروائي لبقي المكان مفرغا من كل الأبعاد الدلالية الفنية والجمالية"(52)

إن "حميمية المكان"- على حد تعبير باشلار- أو علاقته بالشخصية هي التي تعطيه أبعادا دلالية فنية، و لولاها لما أمكننا أن نتعرف على تلك الأبعاد، مثلما هو الحال بالنسبة لظاهرة الطلل في الشعر الجاهلي، التي تغدوا واقعا نفسيا ومعاناة شعورية أكثر منها ظاهرة موضوعية وهذا الكلام ينطبق على دلالة المكان في الخطاب السردي.

إن الشخصية الروائية قد تاهت في الكان، فحملت دلالته وحمل ملامحها وصفاتها وهي بتواجدها فيه قد أعطته معناه وصارت جزءا منه. فأصبح من المستحيل الفصل بينهما.

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن الروائي لم يكتف بشخصية "ميعاد" لتمثيل الجزائر، وإنما جعل الجدة "حليمة" أيضا ترمـــز إلى ماضي الجزائر المشـــرق وأصالتها المجذرة "كنت جميلة وجذابة وقاهرة"(53)

إن جمال "الجدة" يمثل جمال الجزائر في مرحلة هدوئها واستقرارها قبل الأحداث المؤلمة التي حلت بها، فالمكان قد اكتسب حيويته وأهميته من الشخصية وأصبح حيا يتحرك بعدما كان جامدا لا يتجاوز حدوده الواقعية والجغرافية "باعتبار أن المكان امرأة في إحدى تجلياتها والمرأة مكان بشري في إحدى تجلياته"(54).

وهذا ما جسدته شخصية "ميعاد" وشخصية "الجدة حليمة" في رواية "بخور السراب" حيث حلت الشخصيتان محل المكان، وأصبحت تعبر عن ألامه وأحزانه وجراحاته، وكذلك حمل المكان بعض سماتها وصفاتها.

وهكذا نلاحظ أن العلاقة بين الشخصية والمكان هي علاقة ترابط وتجاذب، فالمـــكان هو الذي يحتضن الشخصية، والشخصية هي التي تعمر المكان، فلا يمكن الحديث عن المكان في غياب الشخصية ولا عن الشخصية في غياب المكان.

ولعل الشخصية الروائية تطلب مكانا تتحرك فيه وتتفاعل معه وتمتزج به نتيجة العلاقة الوثيقة بين هذين العنصرين؛ "هذه العلاقة المحكمة التي تجعل ملامح الشخصية ودلالاتها ترسم على المكان، فيغنينا وصف المكان عن وصف الشخصية لتداخلهما أو تكاملهما"(55)

وهذا ما وجدناه مجسدا في رواية "بخور السراب" حيث تلتقي الشخصية بالمكان (الوطن) لتمثله في محنته ومأساته والفاجعة التي ألمت به.

والخلاصة أن الشخصية والمكان عنصران متلازمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر فالشخصية عنصر أساسي بالنسبة لكل عناصر الخطاب الروائي، ولولاها لما أمكننا أن

نتحدث عن بنية سردية كاملة فـ"الشخصية هي التي توجد المكان، وتنهض به نهوضا عجيبا، والحيز يـخمد ويخرس إذا لم تسكنه هذه الكائنات الورقية العجيبة الشخصيات"[56]

وهكذا أصبح مفهوم الشخصية يتداخل مع مفهوم المكان لدرجة أنه يستعصي على القارئ التفريق بينهما، وخاصة بعد ظهور مفهوم الرواية الجديدة التي عرف فيها مفهوم الشخصية تعقيدا كبيرا.

5- علاقة الشخصية بالزمن: إن الزمن عنصر ضروري من عناصر الخطاب الروائي، فالعمل السردي لا يشكل بنيـة إلا عن طريق تضافر مشكلاته السردية جميعها " فهو لحمة الحدث وملح السرد وصنو الحيز وقوام الشخصية"[57]

والشخصية لا تظهر إلا من خلال ارتباطها بالزمن الذي يحركها، فهو أساس وجودهـا وكينونتها، فهي مرتبطة به ارتباطا وثيقا ولا يفارقها لحظة واحدة.

وقد انصب اهتمام الباحثين على الزمن النفسي باعتباره مرتبطا بالذات الإنسانية، فهي التي تؤطره وتصنعه فهو" زمن القلب وما تشعر به الشخصية من أحاسيس وانفعالات. إنه زمن وجداني يحمل همسات النفس وأشجانها. إنه أصداء لما يجري في داخلها"[58]، زمن مرتبط ارتباطا وثيقا بالأحاسيس والمشاعـر والانفعالات، وقد يطول وقد يقصر حسب الحالة النفسية للشخصية.

وهذا الزمن ناتج عن أحوال النفس البشرية وأوصابها وما تحمله من آمال وآلام، فإذا كانت النفس في حالة الفرح والسعادة فإن الزمن يمرّ عليها كمرور السحاب، أما إذا كانت تعاني سقما أو حزنا فإن الزمن يطول ويتمدد ويثقل.

غير أن المدة الزمنية في حقيقتها، ثابتة لا تزيد ا تنقص وإنما الذات هي التي تضفي عليها هالة من الطول أو القصر حسب أحوالها "فقد تكون الأيام متساوية بالنسبة إلى الساعة ولكنها ليست كذلك عند البشر بأي حال من الأحوال"[59].

وهذا ما نجده ماثلا في رواية "بخور السراب، حيث نلاحظ أن الشخصية تعيش ظروفا سيئة للغاية، جعلتها تحن إلى الماضي وتحاول الهروب من الحاضر الأليم بكل مآسيه ومحنه.

وقد لجأ الروائي إلى تصوير الحالة النفسية لبعض شخصيات روايته التي لم تجد ملاذا سوى الهروب إلى عالم يطبعه الصفاء، و يميّزه النقاء، ولكنها سرعان ما تغـرق في بحر التشاؤم واليأس والانكسار النفسي.

"حيث أكون موزعا بين ذات تتأمل الماضي وأخرى تحاول أن تهرب إلى المستقبل، ينبعث صوت ميعاد من جديد. صوت مفزع، حان، دقيق، وقاتل.." [60].

إن الشخصية تعيش لحظة ضياع بين زمنين: ماض سعيد ولى وانتهى، وحاضر أليم أرخى سدوله عليها، فأحست بألم في داخلها وشعرت بإحباط نفسي أمام عظم المحنة التي حلت بها.

"أنطمر تحت الأرض، تحت ركام الأهواء والأوهام، أنطمر حتى لا يبقى من غير دوي الرعب جنون الكلام، هوس اللامعنى، مرض الذاكرة، عصاب الأحلام"[61]. فالراوي يصور حالته النفسية وما يختلج بداخلها من خوف ورعب وتوتر وقلق واضطراب.

ومن هنا نلاحظ اختلاف الرؤى ووجهات النظر حول هذا الموضوع (الشخصية) الذي جعل النقاد والباحثين لا يثبتون على حال ولا يستقر بهم مقام "ولم يحتدم النقاش حول أي مشكل من مشكلات السرد، بمقدار ما احتدم حول الشخصية التي عدها التقليديون كل شيء في العمل السردي بعامة، والعمل الروائي بخاصة"[62]

الخاتمة

وخلاصة لما سبق نلاحظ أن عناصر الخطاب الروائي مجتـــمعة تشكل بنيته ونسيجه والشخصية هي المحور الأساسي بالنسبة لبقية المكونات السردية الأخرى، إذن فلا بد لها من حدث تؤديه و تقوم به، ومكان تملأه حركة وتبعث فيه الحـــياة، وزمن تتفاعل معه، ولغة تصطنعها وتبثها لتجعل النص الروائي حيا يتحرك بفضل هذه العناصر، وتشابكها فيما بينها،

فالبناء السردي يجب أن يكون متماسكا ومتكاملا، كل عنصر يكمل الآخر ويؤثر فيه، وعنصر الشخصية قد حظي باهتمام كبير من قبل الباحثين مقارنة ببقية العناصر الأخرى وذلك نظرا لأهميته وحيويته داخل الشبكة السردية.

هوامش وإحالات

1- راغب نبيل، فن الرواية عند يوسف السباعي، بيروت، د، ط، د، ت، ص: 175.
2- شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، دمشق اتحاد كتاب العرب د.ط.د.ت.ص: 32.
3- المرجع السابق، ص: 174.
4- مفتي بشير، بخور السراب، منشورات الاختلاف، ط1، 2004م، ص:101.
5- المصدر نفسه، ص: 120.
6- المصدر نفسه، ص: 110.
7- م، ن، ص: 99.
8- الباردي محمد، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، دمشق إتحاد الكتاب العرب، د، ط، 2000م. ص: 71.
9- جرج سالم، المغامرة الروائية، دراسات في الرواية العربية، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب، د، ط ، 1973 ، ص: 69.
10- أبو شريفة عبد القادر وحسين لافي قزق، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2000م.ص: 124
11- إبراهيم سيد، نظرية الرواية، دراسة لمناهج النقد الأدبي في معالجة فن القصة،دار قباء،د.ط،1998م، ص: 18.
12- شرشار عبد القادر، الرواية البوليسية، بحث في النظرية والأصول التاريخية والخصائص الفنية وأثر ذلك على الرواية العربية، دمشق، من منشورات إتحاد الكتاب العرب، د.ط 2003م، ص: 135-136.
13- شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، ص: 35.
14- بخور السراب، ص: 56.
15- مخلوف عامر، تجارب قصيرة وقضايا كبيرة، الجزائر، المؤسسة الو طنية للكتاب، د، ط ، 1984، ص:86.
16- المصدر السابق، ص:69.
17- يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، بيروت، دار الفرابي، ط2، 1999 ص: 125.
18- المرجع نفسه، ص: 99.
19- بخور السراب، ص: 136.
20- مرتاض عبد الملك، القصة الجزائرية المعاصرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط2، د.ت.ص:119
21- المصدر السابق، ص: 13.
22- المصدر نفسه، ص: 29.
23- م، ن، ص: 24.

24 -مرتاض عبد الملك، القصة الجزائرية المعاصرة، ص: 125.
25-دليلة مرسلي وأخرون، مدخل إلى السيميولوجيا، تر: عبد الحميد بورايو، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص: 55.
26- بيبتور ميشال، بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد أنطونيوس، بيروت، منشورات عويدات ط1،1971 م.ص: 68.
27- رضوان عبد الله، البنى السردية، دراسات في القصة الأردنية، من منشورات رابطة الكتاب الأردنيين د.ط.د.ت.ص: 16.
28- المرجع نفسه، ص: 18
29- بخور السراب، ص: 07.
30-المصدر نفسه ، ص: 62.
31- المصدر نفسه ، ص: .22.
32- مرتاض عبد الملك، تحليل الخطاب السردي، معالجة سيميائية تفكيكية مركبة لرواية دقاق المدقق، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، 1995م.ص: 35.
33- عبد الله المحادين، التقنيات السردية في روايات عبد الرحمان منيف، ط1، 1999، ص: 11.
34- رضوان عبد الله، البنى السردية، ص: 16.
35- محمد داود، الرواية الجديدة بفرنسا 1950-1970، مقاربة سوسيو نقدية، رسالة مخطوطة لنيل شهادة دكتوراه، جامعة وهران2004/2003م، ص: 278.
36- بخور السراب، ص: 23.
37- يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي،ص: 52.
38-المرجع نفسه، ص، ن.
39- مخائيل باختين، تحليل الخطاب الروائي، تر محمد برادة، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط، 1987م، ص: 235.
40- مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، د.ط، 1998م.ص: 134.
41- غالي شكري، الرواية العربية في رحلة العذاب، دار الهنا للطباعة، ط1، 1971م. ص:47.
42- بخور السراب، ص: 37.
43- عكاشة شايف، مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية، قراءة مفتاحية في منهج تطبيقي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط.ت، ص: 132.
44-المصدر السابق، ص: 145-146.
45- الباردي محمد، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، ص: 39.
46- محمودي بشير، نظرية في النقد الجزائري الحديث، رسالة مخطوطة لنيل شهادة دكتوراه، 2002-2003م.ص:41.
47- بخور السراب، ص:14.
48- الآداب واللغات، مجلة يصدرها قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الأغواط، العدد01 ديسمبر2004 م. ص:23.

49- المصدر السابق ، ص: 154.
50- التبيين، العدد 09، الرواية وفعاليات القص قراءة في رواية ليلة القدر، الطاهر بن جلون.ص: 42.
51- الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، العدد 114،1998م. عمار زعموش، الخطاب الروائي في ذاكرة الجسد (من نقد الواقع إلى البحث عن الذات) ص:238.
52- المرجع نفسه، ص، ن.
53- بخور السراب، ص:26.
54- المصدر نفسه، ص: 39.
55- محمودي بشير، نظرية في النقد الجزائري الحديث، ص:41.
56- مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية،ص:104.
57- المرجع نفسه،ص:120.
58- حاج معتوق محبة، أثر الرواية الواقعية الغربية في الرواية العربية، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1، 1999م، ص: 65.
59- قاسم سيزا، بناء الرواية، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، 1985م، ص69.
60- بخور السراب، ص:84.
61- المصدر نفسه، ص: 95.
62- مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية، ص: 102.